مجلة أبحاث البصرة (الإنسانيات) المجلد ٣٠ العدد (٢-أ) ٢٠٠٦ ص٥٧-٨٥

رثاء الزوجة ومكانتها في الشعر الاندلسي في عهد المرابطين والموحدين وبني الاحمر

خالد عبد الكريم عذاري
جامعة البصرة / كلية التربية/ اللغة العربية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين أبي القاسم محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين، وصحابته المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،أما بعد...

فقد تغنى كثير من الشعراء بمن يحبون ، بالعشيقة والحبيبة، والزوجة المخلصة ،تغنوا بها حية ورثوها بعد موتها ،وهو غزل من نوع أخر ،غناء يثير الشجون ويكلم الجروح ويعبر عن مكانة المرثي ولا سيما الزوجة بعد فقدها .

فكان لاتساع ظاهرة رثاء الزوجة في المجتمع الأندلسي وبروزها كموضوع حاول أن يجاري غيره ولو على استحياء ،إلا انه استطاع أن يشكل ملمحا" في ذلك المجتمع ،دفع الكثير من الباحثين للخوض في ضماره رغبة في الكشف عن دوافعه ومغازيه ،حاله في ذلك حال الأدب العربي عامة، إذ ظهرت فيه مثل هذه الدراسات ،كدراسة الدكتور علي الهاشمي (المرأة في الشعر الجاهلي)، ودراسة الدكتورة واجدة مجيد (المرأة في الأدب العباسي) ، (والمرثاة الغزلية) للدكتور عناد غزوان .

وقد اتخذت الدراسة منهجا" متبعا" اعتمدت فيه على توافر القصائد وتقسيمها البنائي ، متخذة من التسلسل في المعاني وحدة لتسلسل القصائد في الدراسة بغض النظر عن التقديم والتأخير التاريخي في إنشاء القصائد ، فتناول البحث المعاني التي تطرق لها الشعراء في مرثياتهم وتوظيفها في بناء قصائدهم ،كالحزن والتفجع والتأبين، وبكاء زوال الرقة والجمال، والبكاء من خلال توظيف الأطفال والأولاد ...

ثم عرجت الدراسة إلى الإشارة للوحدة البنائية المتبعة في قصيدة الرثاء وذلك لغرض التأكيد على البناء التقليدي المتبع فيه وفي غيره من الموضوعات في الشعر العربي ولا سيما الرثاء ...

مدخل :

أطلق الكثير من الشعراء الأندلسيين الجماح لأحاسيسهم ومشاعرهم في التفجع والبكاء على رحيل أجمل اللحظات، وفقد اسعد الأحلام وارقها، انه البكاء على فقد السكن، انه البكاء على رحيل الطمأنينة وحلول القلق، انه البكاء على رحيل الأمل في السكينة ونزول الظلمة على حياة الشاعر، انه البكاء على الفراق وفقد السعادة دون أمل اللقاء، انه البكاء على فقد الزوجة!

عذاري

لقد رحل كثير من الشعراء في مرثياتهم اليائسة الحزينة، رحلوا مع الأحلام والذكريات، يتصفحون أجمل اللحظات واسعد الأوقات التي عاشوها مع الزوجة التي رسموها بأجمل الألوان، وإذا كانت المراثي ما وجدت إلا تسلية لمن إصابته النوائب، وحالت الحوادث والأيام بينه وبين أحبابه، وتأسيه لمن سبق إلى هذا المصرع[1]، فما رثاء الزوجة إلا تسلية للنفس على عظم المصاب ووقع النازلة وفقد الحبيبة المواسية في الغربة، وليس ببعيد من ذلك قول الشاعر أبي حيان الأندلسي[*] في زوجته زمردة:

كانت انسي في وحدتي واغترابي ومنامي ويقظتي وسفاري

ونديمي في رحلتي ومقامي وزميلي في حجتي واعتماري

.....

كنت أرجو بان تعيش وتبقى حين سقمي تدور بي وتداري

.....

كانت الروح بين جنبي راحت فحياتي صارت كثوب معار[2]

انه إحساس كبير بألم الفقد يطغى على هذه الأبيات، انه الم وتوجع على فقد الأنيس في الغربة، والنديم في الرحلة، إنها الروح التي كانت فرحلت دون أمل في الرجوع.

وبين الرثاء في المشرق والأندلس لا تجد ما يميز احدهما عن الآخر، فلم ((يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع، على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة وكانوا يستهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة ...))[3]، إلا أن كثرة رثاء الزوجات في الأندلس، هي ظاهرة ملفتة للنظر، وقف كثير من الباحثين والكتاب إزاءها معللين ومبررين، وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها في الشعر العربي عامة وفي الشعر الأندلسي خاصة، وربما يقف وراء هذه الظاهرة

---

[1] ينظر نهاية الإرب: ج٥/ ١٦٥

[*] هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجياني النفري ولد في غرناطة (٦٥٤هـ) ورحل عن الأندلس (٦٧٨هـ) واستقر في مصر حتى توفي فيها (٧٤٥هـ).

ينظر الإحاطة: ٣/٤٣، الكتيبة الكامنة: ٨١.

[2] ديوانه: ١٩٣

[3] في الأدب الأندلسي، د.جودت الركابي: ١١٤.

وشيوعها في المجتمع الأندلسي عدة دوافع تتمثل في ((البيئة الأندلسية نفسها التي أعطت للمرأة حقها ومكانتها ودورها المهم في الحياة الاجتماعية إلى جانب الحياة القلقة التي يشوبها عدم الاستقرار والتي عايشها الأندلسي في معظم فترات حياته بالأندلس، نتيجة للحروب المستعرة والمتواصلة ثم الهجر والضياع مما جعله يحس بالضياع والتشتت والطمأنينة المفقودة، ولم يكن بعينه في تلك الظروف القاسية على تحمل آلامها والوقوف بصمود وثبات ضد هذه التيارات وتلك الانقسامات غير الزوجة، فكان يجد عندها السكن والأمن والطمانية ووجه الحياة المشرق الباسم))[1]، فكان فقد الزوجة يسبب للأندلسي قلقاً عارماً ويخلق في نفسه شعوراً بعدم التوازن، فجاءت مرثياتهم ((لوناً ذاتياً خالصاً يكشف عن أهمية دور المرأة الاجتماعي،... وفيه يحس الشاعر بالضياع ويعاني الشعور بالحرمان)) [2]، ومع ذلك فهي لم تكن ظاهرة جديدة على الشعر العربي، وان كان المجتمع العربي القديم لا يتقبلها ((على أساس أن المرأة لا تستحق الرثاء بسبب الرواسب المتبقية من عادة واد النساء التي أشار إليها القران الكريم...ولكن تطور المجتمع الإسلامي غير هذه التقاليد...))[3]،فمع النظرة المتدنية للمرأة في المجتمع العربي القديم يمكن أن نلمح بعض الصور في الإشارة إليها من بعيد، إلا أن بروزها_ بوصفها ظاهرة شائعة_ لم يكن يحدث لولا طبيعة المجتمع الأندلسي المنفتح الذي تقبل مثل هذه المواقف وعايشها، فالشاعر

العربي جرير يكشف عن إحساسه بالتوجع والألم على فقد زوجته وأم أولاده ولكن بهدوء وسكينة، وبصورة ذاتية استحياء من واقعه الرافض لمثل هذه المواقف إذ قال في مطلع قصيدته:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولقد نظرت وما تمتع نظرة في اللحد حيث تمكن المحفار[4]

ويعلل ابن رشيق في العمدة، سبب قلة رثاء النساء في الشعر العربي بقوله ((ومن اشد الرثاء صعوبة على الشاعر، أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات))[5]، ومثل هذا القيد لم يكن ليبرز كظاهرة يعيق الشاعر الأندلسي في رثاء النساء ولاسيما الزوجة، لما تتمتع به المرأة من مكانه مرموقة ومنزلة رفيعة وقدر عال في المجتمع الأندلسي المتطور قياساً إلى المجتمع العربي

---

[1] الأدب العربي في الأندلس، تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه: ٢١٦.

[2] دراسات أدبية في الشعر الاندلسي: ١٣٠.

[3] الملح المر: ١٣١.

[4] ديوانه:٢/ ٨٦٢

[5] العمدة: ٢/ ١٥٤.

القديم. فضلاً عن أن مثل هذه الظاهرة لم تكن لتأخذ مداها الواسع إلا نتيجة الإسقاطات التي كان يعيشها الشاعر الأندلسي ولاسيما في المراحل الأخيرة قبيل سقوط الأندلس.

فإذا نظرنا إلى واقع المجتمع الأندلسي الذي عايشه الفرد الأندلسي ولا سيما الشاعر فيها، عن كثب لوجدنا أن بعض تلك المراثي ما هي إلا رثاء ذاتي لنفسه في صورة رثاء النفس[1]، وكأنما قد تمثل الشارع الأندلسي في ذلك قوله تعالى ((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة))[2]، فهي من نفسه وهي جزء منه، وكأنها هو إذا صح التعبير! فهو عندما يرثي زوجته فكأنما يرثي نفسه في ذلك وهذه المحاور هي ما سنحاول إن شاء الله تعالى تصفحها والكشف عنها خلال رحلة البحث، وعلى قدر المستطاع.

تعد مرحلة حكم المسلمين للأندلس قبيل سقوطها بيد الصليبيين، التي مرت بها الأندلس أيام حكم المرابطين والموحدين وبني الأحمر من لكثر الفترات قلقا" ، كونها أخر وأصعب المراحل التي عايشها المسلمون في الأندلس، وذلك لكثرة الحروب والفتن، وتكالب الصليبيين عليها مما انعكس سلباً على نفسية الشاعر الأندلسي.

فيلاحظ كثرة المرثيات لديهم ولا سيما رثاء المدن والمنازل ورثاء الأشخاص، مما يعكس الحالة النفسية القلقة التي كان يعيشها الفرد الأندلسي ولا سيما الشاعر.

ومن تلك المراثي رثاء الزوجة، الذي اتسم بالشيوع كظاهرة في المجتمع الأندلسي دون غيره من المجتمعات العربية، اخذ يصب فيها الشاعر أحاسيسه وعواطفه الجياشة في رثائه لنفسه وذاته وواقعه الأليم، من خلال رثائه لزوجته، وهذا ما يمكن أن نجده في الكثير من قصائدهم ومن ذلك قول الشاعر ابن الزقاق[*]، يرثي زوجته ((درة)) بقصيدة طويلة تختلف عن بقية مراثيه، إذ يبث فيها الشاعر إحساسه بالفقد بشجو صادق وتوجع اليم لموت الإنسان الأقرب إلى قلبه والمواسي الأصدق بإحساسه إليه، مما اكسبها قوة العاطفة وحرارة في الشعور، وصدقاً في الإحساس، إذ يقول في مطلعها[3]:

---

[1] ينظر المرثاة الغزلية: ٢٩.

[2] سورة الروم: ٢١.

[*] ابو الحسن علي بن عطية الله بن مطرف بن سلمة المعروف بابن الزقاق توفي سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م او ٥٣٠هـ/١١٣٥م. ولم يبلغ الأربعين امه شقيقة الشاعر ابن خفاجة له ديوان مطبوع. ينظر: المغرب:٢ /٣٢٣ والخريدة:٦٤٧/2 والحلة السيراء :١٩/٢ .

[3] ديوانه: ٢٢٦-٢٢٨.

لمغناك سح المزن ادمع باك ورجعت الورقاء أنة شاك

وشق وميض البرق ثوباً من الدجى كأن لم يكن يجلى بضوء سناك

اضاعنه والحزن ليس بظاعن لقد أوحش الأيام يوم نواك

نوى لا يشد السفر راحلة له ولا يشتكيها العيس ليل سراك

ولكنها تطوي المحاسن في الثرى فيا حسن ما يطوي عليه ثراك

لقد حاول الشاعر اشراك الأيام والدنيا والأشياء من حوله في حزنه ومواساته لما أصابه من الم الفقد، محاولة منه لإضفاء صورة من الحزن العام، والعتمة الشاملة للحياة، ، ليوصل ألينا صورة المأساة التي يعيشها والألم الذي يكابده، انه رحيل دون رجعة وبغير إرادة، انه رحيل خلف له الحزن المخيم_ الذي وان طال الزمان_ ليس براحل، فكان رحيلها فاجعة له وللأيام فقد غيبت في الثرى تلك المحاسن بغير رجعة، وما إشراك الشاعر حزن الأيام والدنيا في حزنه على رحيل زوجته إلا ليدلل على عظيم مكانتها ورفعة قدرها لديه، ومحاولة منه للإشارة إلى الفراغ الذي خلفه رحيلها في نفسه، فهو كأنما يعيش في مرحلة أشبه بالضياع ولقرب ما تكون إلى العزوف عن حب الحياة وتمني الموت للحاق بها في مثواها الأخير في جنة الخلد! وذلك تعبير عن شدة الفقد.

ويمكن أن يلاحظ في بناء هذه القصيدة انه بناء تقليدي كغيرها من القصائد، فبعد أن يبدأ الشاعر بمقدمة حزينة يشرك فيها حزن الأيام والدنيا من حوله مع حزنه، ينتقل إلى ذكر محاسن زوجته والتفجع على فقد تلك المحاسن، فيجد الشاعر ابن الزقاق في وصف محاسنها وذكر صفاتها محاولة منه لتعميق صورة الحزن وإظهار شدة الم الفقد فيقول:

وتورث شمس الدجن أختك لوعة لفقدك والبدر المنير أخاك

وتعلمنا إن المصائب جمة وان مدانا في المقام مداك

وان الشباب الغض والصون والنهى طوى الكل منها الحين يوم طواك

غدا الدهر من مر الحوادث كالحاً ولم ادر أن الدهر بعض عداك

عجبت له أنى رماك بصرفه ولم يغش عينيه شعاع سناك

فعطل جيداً اتلعا كان مطلعاً سميك منصوباً يصفح طلاك

فغابت الشمس خلف الغيوم من شدة الحزن ولوعة الفراق لفقدها، فكيف لا تحزن وتغيب وقد ماتت أختها! وما دامت الشمس أختها فهي أخت البدر المنير، ويحاول الشاعر من خلال هذا الوصف والتشبيه أن يدلل على جمال زوجته ورفعة قدرها لديه، فهي سبب الخصب والنماء، وسعادة الحياة عنده.

ثم يستخلص الشاعر بعد ذلك من مصيبته هذه أن ((حادثة الموت من الديون التي لابد من التقاض وانه لا سبيل إلى الخلود والبقاء))[1]،وهي حكمة قد عرفها الجميع وختم بها قصيدته، وما ذكرها الشاعر هنا إلا ليواسي نفسه ويصبرها على هول ما حل به من مصاب، وزيادة في تأكيد الشاعر على عمق الأثر النفسي الذي خلفه الفقد، فقد جعل الدهر كله محزونا لموتها، ويحاول الشاعر أن يزيد الشجى وذلك من خلال ذكره اسمها وترديده إياه على وتر حزين، ليدلل على تلذذه بذلك متوجعا متحسراً في موقفه هذا إذ يقول:

فيا در إن أمسيت عطلاً فطالما غدا الدر والياقوت بعض حلاك

ويا در ما للبيت اظلم كسره تراك تيممت التراب تراك

ويا زهرة أذوى الحمام رياضها لقد فجعت كف الحمام ربساك

سقاك الندى حتى تعودي نضيرة ومن للقلوب الحائمات بذاك

---

[1] نهاية الإرب:٥/ ١٦٤

ويمزج الشاعر هنا وصفه لها بالطبيعة، وهو المجال الذي أجاد فيه الشعراء الأندلسيون وأبدعوا، فهي زهرة قد ذبلت لما أصابها الدهر بمصيبته وما تمنى الشاعر بان يسقيها الندى حتى تعود نظرة إلا من باب التوجع والألم وزيادة في بيان حرارة العاطفة.

ويمكن أن يلاحظ إن حرارة العاطفة في قصيدته أخذت تزداد كلما ازداد ذكرا لمحاسنها وتفجعاً عليها، حتى يأخذ به الحزن وفيض الألم إلى حد التدفق الشديد، فيحاول هنا أن يعبر عن ذلك الألم وفيض العاطفة من خلال تنفيسه عن نفسه بذكر اسم زوجته ((درة)) فهو هنا جاء بأسلوب يحمل الكثير من معاني الحزن والألم وبنبرة حزينة وإيقاع ثقيل من خلال استخدامه لأسلوب النداء واليـاء بالذات التي تعطي امتدادات إيقاعية طويلة ونبرات صوتية حزينة تتسع للتعبير عن شدة الحزن والألم وتعبر عن التوجع الذي أراده الشاعر، فجاء أسلوبه موفقا هنا مع الغرض الذي قصده، فضلا عن ذلك فان تكرار الشاعر معنى الاستفهام والتعجب في استخدامه (تراك) الذي جاء ليحمل البيت الكثير من التحسر والألم إذ جاء ردفا" للحسرات والألم ليكمل الصورة الحزينة التي رسمها الشاعر لفراق زوجته درة وعدم قدرته على تحمل فيض ذلك الألم والذي زاد في نجاح قصد الشاعر وأسلوبه واستخدامه البحر الطويل الذي بإمكانه أن يتسع ويحمل مثل تلك الحسرات والألم.

وبعد هذا الوصف المطول لمحاسنها والتوجع على ذكرها، وزيادة في تأكيده لرفعة قدرها ومنزلتها لديه يقرر مبدأ الفداء لها من كريمات الحي:

ألا فت في عضد الحمام لقد رمى	عقيلة هذا الحي يوم رماك
فدتك كريمات النساء وربما	رأين قليلا أن يكن فداك
وهل دافع عنك الفداء منية	أهبت صباحا في رياض صفاك
عزيز علينا أن مضجعك الثرى	وما ينقضي حتى المعاد كراك

ولكن هل ينفع الفداء وقد حلت به المصيبة، فلا يدفع الموت بالفداء وهذه حقيقة يرضى بها الشاعر على مضض وحزن وألم، فقد حلت في دارها وصار الثرى مضجعها، وحل الحزن في قلبه حتى المعاد.

وقد أجاد الشاعر في قصيدته هذه التي تميزت بصدق العاطفة وحرارتها وتفاعل الشاعر معها بتجربة شخصية صادقة تدل على مدى ارتباطه بزوجته وسمو منزلتها ورفعة قدرها في نفسه، وذلك مما يدلل على مكانة المرأة الأندلسية في نفس الرجل والمجتمع الأندلسي وما حظيت به من منزلة مرموقة في المجتمع وحرية واسعة ساعدتها على أن ((تساهم في بناء صرح الأدب من شعر

ومناظرات ومساجلات ومناقشات ويعود سبب ظهور هذه النهضة النسوية إلى البيئة الأندلسية التي زخرت رحابها بمباهج الحضارة والرقي))[١]، كل تلك المنزلة الواسعة قد خلقت فراغا أوسع في نفس الشاعر الأندلسي عند الفقد.

وعلى هذا المنوال في بناء القصيدة سار الكثير من الشعراء فكما بنى الشاعر ابن الزقاق قصيدته فعل كذلك الشاعر الأعمى التطيلي[*]، فقد افتتح قصيدته في رثاء زوجته (آمنة) بمقدمة حزينة ثم ذكر لمحاسنها والتفجع عليها حاله في ذلك حال من سبقه من الشعراء، فقال في مطلعها[٢]:

ونبئت ذاك الوجه غيره البلى ... على قرب عهد بالطلاقة والبشر

بكيت عليه بالدموع ولو أبت ... بكيت عليه بالتجلد والصبر

*****

أآمن لا والله ما زلت موفيا ... ببينك لو أني أخذت له حذري

أآمن إن اجزع عليك فإنني ... رزئتك أحلى من شبابي ومن وفري

فهو تفجع وألم وحسرة تفيض به القصيدة، لفقد هذه الزوجة انه الم الفراق وترك الفراغ الكبير الذي لا يملأه في نفس الشاعر أي شاغل آخر، انه فقد السند والمواسي والحبيب في الغربة وإثارة الأوجاع والتذكير بحالة القلق الدائم والحزن المستمر، وليس أدل على مكانة زوجته في نفسه إنها كانت امرأة حاضنة له على العمل والتقدم في مجالات الحياة وقد صرح الشاعر الأعمى التطيلي بذلك في قصائده[*]، وصورة الزوجة اللائمة تطالعنا في الكثير من الشعر العربي فصورها الشعراء ((وهي تلوم وتلحف في اللوم وفي العتاب وهو يصغي للومها وقد يعمل بما تشير به عليه وقد يضيق باللوم فيقلق ويضجر حتى يحنق عليها كما انه قد يناقشها الرأي مناقشة دقيقة)) [٣] وأيا" ما تكن من تلك الصور فهي لها دور في حياته قد تركت دونه الفراغ بعد الفقد.

ويحاول الشاعر كذلك الإكثار من حالة التوجع والألم من خلال تكراره لاسم زوجته وهو أسلوب مستخدم في الكثير من قصائد الرثاء ويعد من أساليب التوجع المستعملة فيها ولاسيما رثاء

---

[١] الشعر النسوي في الأندلس: ٤٠

[*] أبو جعفر احمد بن عبدالله بن هريرة الأعمى التطيلي من الشعراء والكتاب المبرزين توفي سنة ٥٢٥هـ. له ديوان مطبوع، ينظر/ المغرب: ٢/ ٤٥١ ترجمة ٦٣٧ ، والإحاطة ٤٢٤/١ ، والخريدة: ٥٦٧/٢.

[٢] ديوانه: ٧٠-٧١

[*] ينظر في ذلك ديوانه: ١٦٩-١٧٠.

[٣] المرأة في الشعر الجاهلي: ١٤٠

الزوجة، وما استخدام الشاعر لهذا الأسلوب إلا ليدلل على الحسرة التي يمر بها نتيجة لهذا الفقد، مضافاً إلى ذلك مزج أسلوب الاستفهام مع التكرار زيادة في تكرار الإيقاع المنسجم تأكيدا من الشاعر على تكرار التحسر والألم المتسق المستمر على نفس النمط والمنوال.

فضلاً عن ذلك فإنها قصيدة تفيض بالألم والحزن والتفجع على الفقيدة، وقد أجاد الشاعر فيها بوصف زوجته ومحاسنها التي دثرت، مازجاً ذلك الوصف بالطبيعة كما هي عادة الشعراء الأندلسيين في استخدام الطبيعة والاستفادة منها في أشعارهم مقتنعاً بحكم القدر وحكمة الله تعالى في العباد، وفي رثاء الزوجات يقول د. إحسان عباس ((هو البكاء على زوال الرقة والجمال... وهو لون ذاتي خالص... كأنه ترجمة ذاتية قصيرة...نجد هنا لموقف الشاعر الأندلسي تفسيرات اجتماعية أثارت هذا اللون من الرثاء على نطاق غير قليل ومن تلك التفسيرات شعور الأندلسي بقيمة المرأة وتقديره لدورها... إن هذا الشعور قد قوي في أيام المرابطين، بسبب من نظامهم الاجتماعي...))[1]، وهذا ما يمكن أن ينطبق على الشاعر الأعمى التطيلي وغيره من الشعراء، فربما كان هنالك دور للنظام الاجتماعي والنظام السياسي الحاكم_ والذي تميز بسيطرة الفقهاء_ الذي كانت تمر به الأندلس في تلك المرحلة وانعكاس ذلك على نفسية الشاعر الأندلسي فعبر عما في نفسه من ضيق ذلك النظام ورفض له، في مرثياتهم فكانت نتيجة لذلك ظاهرة كثرة رثاء الزوجات في الأندلس.

ويمكن أن ينكشف ويجلاء لوضح قدر الزوجة في حياة الشاعر الأندلسي ومكانتها لديه، وما يمكن أن تخلفه من فراغ شاسع في نفس الشاعر وحياته، في قصيدة الشاعر لسان الدين ابن الخطيب[2]، التي يفصل فيها ذكر الأدوار المهمة التي تقوم بها الزوجة في حياته وتنظيمها ومساعدته على صعابها، والإشارة إلى الخلل الحاصل جراء ذلك الترك المفاجئ، وعظم المصاب النازل إذ يقول[3]:

روع بالي وهاج بلبالي ... وسامني الثكل بعد إقبال

ذخيرتي حين خانني زمني ... وعدتي في اشتداد أهوال

.....

قد كنت مالي لما اقتضى زمني ... ذهاب مالي وكنت آمالي

---

[1] تأريخ الأدب الأندلسي: ١٢٠

[2] ذوالوزارتين محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن احمد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب ،من اسرة اشتهرت بالفضل والرياسة ، اديب شاعر وكاتب قتل على يد رجال الغني بالله سنة ٧٧٦ ه بعد عودته من المغرب واستقراره في غرناطة عام ٧٦٣ ه. ينظر/ نثير فرائد الجمان/ ٢٤٢.

[3] نفاضة الجراب: ٢٠٥

عذاري

كيف لا يجزع عليها وتفيض عيناه دماً لفقدها وهي الذخيرة في الغربة والبعاد عن الأهل والأحبة والمواسية والسند الأوحد في ذلك البعاد، وهي كل ما اعد الشاعر من عدة وسند وذخيرة أمام شدائد الزمان وغدره، إنها الطمأنينة المفقودة والسكن الضائع دونه الشاعر في غربته وحيداً حائراً. ثم يقر الشاعر بأنه لا أمل له في الحياة وانه قد فقد الحافز والمشجع على الاستمرار في الحياة، لقد فقد بعض أهم أركان الحياة ومرتكزها في نفسه، ألا وهي المال والآمال فما حاجته للبقاء بعد ذلك فهي كل ما يملك من مال بعد ضياع ماله وهي الأمل الوحيد لدى الشاعر في الحياة والبقاء وقد فقد ذلك الأمل ليظل وحيدا دون جدوى في الحياة، فما حياة الإنسان دون أمل.

ثم يجدّ الشاعر في مرتكزه الثاني في بناء القصيدة، في وصف محاسنها وشبابها النضر الذي غيبه الثرى وغيره البلى على طول عهد بالطلاقة والبشر، إذ يقول:

حفرت في داري الضريح لها ... تطلاً بالمحال في الحال

وغبطة توهم المقام معي ... وكيف لي بعدها بإمهال

سقى الحيا قبرك الغريب ولا ... زال مناخا لكل هطال

أما وقد غاب في تراب سلا ... وجهك عني فلست بالسالي

والله حزني لا كسان بعد على ... ذاك الشباب الجديد بالبالي

فانتظريني فالشوق يقلقني ... ويقتفي سرعتي واعجالي

ومهدي لي لديك مضطجعا ... فعن قريب يكون ترحالي

واسمك مقلويه يبين لي ... مآل أمري في معرض الفال

وفي هذه الأبيات يحاول الشاعر أن يناجي زوجته فهي وان غابت تحت الثرى إلا أنها قريبة من روحه و قيام الشاعر بدفنها في بستان البيت إلا ليؤكد لنفسه أنها موجودة بالقرب منه، إنها مناجاة تفيض بالألم والحسرة وتوحي بعظم المصاب وشدة وقع الحادثة على نفسية الشاعر، فيعاهدها على عدم

السلوان مهما باعد بينهما الفراق، ثم يؤكد من جديد ما تطرق إليه سابقا من انه لا أمل له في الحياة بعد فقده أخر أمل له في الوجود وأخر ما يملك من ذخيرة تساعده على استمرار الحياة، فهو يوحي إليها أن تنتظره فهو عما قريب سيلحق بها إذ لا قبل له على الحياة بعد فقدها وضياع ما لأجله تستمر حياته.

ثم يقرر في الختام، كما فعل من سبقه من الشعراء حكمة أن لا وجود دائم إلا لله تعالى وان الناس لا محالة إلى ربهم منقلبون، فرحيل زوجته ومقلوب اسمها (إقبال) يدلان على أن (لا بقاء) في هذه الدنيا الفانية وان طال المقام، وهذه تورية لطيفة دلت على قصد الشاعر بصورة غير مباشرة .

وهذه القصيدة تسير على منوال ما سبقها من قصائد في بنائها ومعانيها، حاول الشاعر أن يعبر من خلالها عن غربته النفسية فضلاً عن غربته الجسدية، وقد كشفت هذه القصيدة عن مكانة الزوجة في حياة الشاعر، لقد وجد في قربها سكنا وأنسا يزيل وحشة غربته، وهذه صورة ليست بالجديدة بل هي متكررة لدى العديد من الشعراء في هذه المرحلة من حياة الأندلس، كما يوحي بالقلق الذي عايشه الشاعر الأندلسي خاصة والفرد الأندلسي عامة، نتيجة الغربة والأوضاع الاجتماعية والسياسية القلقة والحياة غير المستقرة.

ومن تلك القصائد التي يمكن أن تشير إلى مثل هذه المعاني مرثية ملك غرناطة يوسف الثالث[*] في زوجته، فقد ابتدأها الشاعر بالاستفهام الاستنكاري الذي يحاول أن يؤكد من خلاله بعض الحقائق المستندة إلى إيمان الشاعر باستحالة تحققها ، فيلاحظ من خلال استخدامه لأسلوب الجمع بين النقيضين، بتمني اجتماع الشمل بعد الفراق وعودة الأنس إلى حياته مع إيمانه باستحالة تحقق هذه الأماني ،فيتدرج بأمنياته إلى الواقع المحزن فيطلب السلوان إلى قلبه واغماضة جفن إلى عينه ولو في سناه ويقضته ، والأخر إيمان الشاعر بهذه الحقيقة الواقعة وهي حقيقة الفراق دون اجتماع جديد وموت الإنسان دون رجعة، وما هذا التمني مع إيمان الشاعر بالقدر إلاّ لإثارة الأوجاع وكلم الجروح حتى تنزف الماً واسىً على فقدها إذ قال:[1]

أحقا يعود الشمل بعد شتاته ... جميعاً، ويحيى الأنس بعد مماته

وينعم بالسلوان قلب مقلب ... ويألف جفن العين بعض سناته

هو الدهر قد يبدي الجميل وإنما ... مسرته مقرونة بمساته

---

[*] وهو يوسف بن يوسف بن محمد المعروف باسم يوسف الثالث، حفيد الغني بالله محمد الخامس والثالث عشر من ملوك بني الاحمر، دام حكمه عشر سنوات له ديوان شعر، امتدت ولايته الى عام ٨٢٠هـ، ينظر: مقدمة ديوانه: س ومقدمة ديوان ابن فركون: ١٩

[1] ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ١٥

فحاله حال من فقد عزيزاً عليه، خلف في نفسه الأثر الأعظم، فصور اثر هذا الفقد وعظم المأساة التي خلفها رحيل زوجته عن حياته ثم انعكاس ذلك الأثر المؤلم في نفسه، حاله في هذا حال غيره من الشعراء وإن اختلفوا في حرارة العاطفة وصدق التعبير عن المأساة الحقيقية التي يشتركون بها على اختلافهم في عظمها وشدتها، لقد أدرك الشاعر أن الدهر مهما منحه من لذة النعيم ورقة الوصال بقرب زوجته فانه يخبئ له قدراً مكتظاً بالأحزان.

وبعد عودة الوعي للشاعر من شدة الصدمة وإقراره بالواقع المر وانه لا خلود على الأرض، يتأسف من جديد على فقدها فيقول شاكياً:

فوا أسفا إن أتجم الروض يانعاً ولم اجن ما قد راق من زهراته

لقد نشرت أيدي البعاد صبابتي كما قد طوت قلبي على حسراته

وجفني كان الخد ميدانه وقد أجال الجياد الحمر من عبراته

لقد حاول الشاعر أن يتصبر ويظهر جلده حين يقر إن الرحيل قد حل دون عودة ودون أمل في ذلك، فاخذ يوظف بعض الأساليب في رسم صوره الحزينة محاولة منه لزيادة الألم وإيصال تلك الحسرات وحرارة العاطفة وصدقها إلى المتلقي ومن تلك الأساليب تجسيده للبعاد من خلال اكسابه صفات محسوسة مجسدة حيث تقدم الصورة فكرة أو خاطرة عن طريق إحساس مجسد[1]، وذلك بان جعل له أيدي قد نشرت الفراق كما ضمت القلب وطوته على الحسرات إيحاء منه بعدم الشعور بالسعادة بعد فقد زوجته، وكذلك تشبيهه للخد بميدان تجري فيه الخيول الحمر كناية عن الدموع التي تجري دماً، ليدل وبدون ادني شك على استمرار الحزن والبكاء دون توقف حتى وان عز الدمع فان العيون تبكي دماً دونه، وما تشبيه الشاعر للخد بالميدان والدموع بالجياد إلا ليؤكد هذا المعنى وهو الاستمرار في الجريان، وذلك لان صورة المشبه والمشبه به هي الحركة والاستمرار في الميدان وما استخدام الشاعر لهذه الأساليب البلاغية إلا ليساعده علي تفريغ حسراته وآلامه وإيصال تلك الصورة الحزينة إلى متلقيه بابهى ألوان وأدق تعابير وهو تشبيه وان صدق وعبر عما في نفسية الشاعر إلا انه تشبيه مباشر ومعلوم ((أن استغلال التشبيه والوصف المباشر في محاولة خلق صورة شعرية يعد من ابسط الأساليب الفنية

[1] ينظر: الحركة الشعرية في فلسطين: ٤٤

في التصوير، واقلها قدرة على الإيحاء وخاصة إذا وقف الشاعر عند مجرد التشبيه الحسي بين الأشياء دون الغوص إلى معانيها النفسية))[1].

وزيادة في إبراز صورة الحزن وتهويل المصاب يستخدم الشاعر بعض الأساليب البلاغية كأسلوب التكرار إذ يقول:

فيا من لقلب ليس يهدا بعدما تقلب في المشبوب من جمراته
ويا من لقلب ليس يرفا عندما سرى ركبها والموت بعض حداته

اذا جالت الذكرى بقلبي بعدها يضيق نطاق الصبر عن زفراته

فمن خلال تكرار الشاعر لساؤلاته ((فيا من لقلب)) بنبرة حزينة توحي بألم الشاعر على فقدها ورحيلها دون رجاء العودة، وكذلك استخدامه لفظة (سرى) لتضيف بعض ألوان العتمة إلى صورته ذات الألوان الحزينة، وكذلك استخدامه لأسلوب المبالغة في (يضيق نطاق الصبر عن زفراته) ليدلل على الزيادة في حالة الحزن التي يعيشها فهو قد رسم صورة مركبة فاعلة متصاعدة في مجال الحزن عبر عنها من خلال رسمها بألوان قاتمة تزيد من الإحساس بحالة الحزن التي قصد إليها، حتى يضمن مشاركة سامعيه فيها.

وقد قرر من خلال هذه الأبيات وما بعدها مكانة الزوجة في حياته وقدرها لديه، وهي وان بعدت إلا أنها قريبة من قلبه وروحه، وذلك بتأكيده على إخلاصه التام وحبه الأبدي لهذه الزوجة الغالية، التي غيبها الثرى وغيرها البلى وحكم بذلك الفراق، القدر، فحبها في نفس الشاعر باقٍ إلى الأبد وعهده لها مصون ويمكن أن يستدل على مدى قلق الشاعر من فقده لزوجته من خلال استخدامه لأدوات الاستفهام والتمني المتعاقبة (ألا ليت هل أرجو) لتدل وبصورة مباشرة على ارتباك الشاعر أو محاولة لتصوير حالة القلق النفسي التي يعيشها بعد فقده لزوجته:

ألا ليت هل أرجو لما فات عودة فطلع صبح الوصل نور آياته
وهل فانت في الدهر يرجى معاده وهل طمع بعد الردى في ثباته

---

[1] الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة: ٥٦ ، وينظر في ذلك، النقد الأدبي الحديث: ٤٤٤

وقد استخدم بعض الشعراء الرثاء لزوجاتهم على لسان أولادهم أو ذكرهم للأولاد في مراثيهم_وهو ما يمكن أن يسمى بتوظيف الأولاد في المراثي إذا صح التعبير_ ليزيد من عظم الفاجعة ويدلل على عمق الأثر الحزين كون أن الزوجة قد خلفت من دونها ذكرى تهيج من الم الشاعر وحزنه تجدد كلما مر به ما يحركها ومن ذلك قول الشاعر أيضا:

وجـدد لـي الذكـرى رضيـع مكانـه ... بلسـان عينـي لا أقـول فؤاديـا[1]

فهو طفل رضيع استخدمه الشاعر كصورة حزينة تهيج في السامع اللوعة، فهو لا حول له ولا قوة من دون أمه التي فقدها وهو لا يزال رضيعاً محتاجاً لحنانها ورعايتها، فحاول الشاعر من خلال استخدامه لهذه الصورة الحزينة، أن يدلل على عظم الفاجعة والحسرة المتولدة نتيجة ذلك الفقد، فكلما حاول الشاعر النسيان يجدد صوت ذلك الرضيع الذكرى الحزينة المؤلمة.

وليس ببعيد عن ذلك الأسلوب، قصيدة الشاعر ابن حمديس[*]، في رثائه لزوجته باستخدامه الرثاء على لسان ولده عمر إذ قال فيها[2]:

أي خطـب عـن قوسـه المـوت يرمـي ... وسـهام تصيـب منـه فتصمـي

...

فـهو كـالبدر ينقـص النـور منـه ... بمحـاق وكـان مـن قبـل ينمـي

كـل نفـس رميـة لزمـان ... قـدر سـهم لـه فقـل كيـف يرمـي

...

لـو بكـى نـاظري بصـوب دمـاء ... مـا وفـى فـي الأسـى بحسـرة أمـي

مـن توسـدت فـي حشـايا حشـاها ... وارتـدى اللحـم فيـه والجلـد عظمـي

وضعتنـي كرهـاً كمـا حملتنـي ... وجـرى ثديـها بشـر بـي وطعمـي

---

(1) ديوانه: ١٦٥.

(*) هو عبد الجبار بن حمديس ولد سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٥٥م في صقلية وهو من اصل عربي ازدي يعرف بابي محمد عبد الجبار بن ابي بكر بن حمديس توفي سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، ينظر: الخريدة ٢/٦٦، ديوانه: ٣.

(2) ديوانه: ٤٧٧- ٤٨٠.

شــرح الله صدرهــــا لـــي فلشـــهى مــا إليــها أحضــان جســمي وضمـــي

بحنــــان كلتــــها فــــي رضــــاعي أم ســــقب درت عليــــه بشــــم

وهكذا هو الحال من البكاء على الأم حتى نهاية القصيدة، التي أجاد الشاعر فيها البكاء علـــى زوجته بصورة غير مباشرة، وذلك بان جعل ذكرها وذكر محاسنها ودورها في الحيــاة مــن جــانب الأبناء، وهو أسلوب لطيف دخل منه الشاعر لغرضه دون الإشارة المباشرة، ولا ينقــص ذلــك مــن قدرها، بل على العكس زاد منه ذلك الجانب سمواً ورفعةً وهو ذكر جانب الأمومة والحنان .

وقد لجأ الكثير من الشعراء إلى استخدام الأساليب البلاغية في رسم صورهم الحزينة وبشــكل واسع وكثير، ومن ذلك مثلا استخدامهم لأساليب الاستعارة والتشبيه مع مزجها بأسلوب الجمــع بيــن النقيضين، وذلك محاولة من الشاعر لتوضيح صورته التي قصد إليها كما في قول الشاعر أبي البقــاء الرندي*، في رثاء زوجته إذ يقول[1]:

يابرهــة كــان فيــها للمنــــى أمـــل ونزهــــة للـــهوى والســـمع والبصـــر

مضت مضي الصبــا عنــي ولا عــوض ومــن يقــوم مقـــام الشـــمس والقمـــر

فاستعار الشاعر لفظة (برهة، نزهة) للزوجة ليدلل على مكانتها لديه فهي برهة الأمل ومتنفس الشاعر وروعة النظر لديه، وقد حاول الربط من خلال هذه الاستعارة بينها وبين الأشــياء المعنويــة ليدلل على مكانتها في حياته.

وفي البيت الثاني استخدم أسلوب التشبيه البليغ وذلك من خلال تشبيهه لفقدها ورحيلــها عنــه بمضي الشباب دون رجعة أو أمل في ذلك العود المفقود، ومن الملاحظ أن وجه الشــبه بينــهما هــو المقصود من الشاعر في رسم صورة الحزن التي يعيشها، فقد ربط بين مضي العمر وزوال الشــباب ومجيء عتمت المشيب وحلول نهاية العمر، وبين مضي النهار وغياب الشمس وعتمت الليل الغــائب عنه القمر، انه يعيش في حالة الحزن والظلمة الدائمة دون رجاء في بصيص أمل ولو من قريب وهـذا ما قصده الشاعر أو حاول أن يشير إليه ليشرك السامع في حزنه من خلال رسمه مثل هــذه الصــور

(*) هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن ابي القاسم بن شريف النفري من اهل رندة يكنى ابي الطيــب، شــاعر مجيد في الغزل والمديح والتصوف، توفي عام ٦٨٤هـــ، ينظر: الاحاطة: ٣/٣٦٠، نفح الطيب: ٤/٤٨٦.

[1] ابو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: ٧٣.

المعتمة... ولا يعد مثل هذا الأسلوب في التصوير الحزين القاتم والصورة المظلمة أسلوباً جديداً في الشعر والرثاء بل يكثر في العديد من قصائد الرثاء.

ويستمر الشاعر في تشبيهاته ليبين بعض صفاتها وليشير إلى بعض العلاقات الحميمة والحياة السعيدة التي كان يعيشها مع زوجته إذ يقول:

عهدي بالفتنا والإنس ينظمنا بطيبة العيش نظم السلك للدرر

روحي في جسد، سرين في خلد كما تقابل أهل الخلد في السرر

حتى رمى البين شخصينا ففرقنا كما تفرق بين العين والنظر

ويمكن أن يلاحظ هنا كثرة استخدام الشاعر لأسلوب التشبيه في هذه الأبيات المتتالية، فشبه طيب العيش واستقرار حياتهما بالعقد المنظوم، لم يفرقهما عن بعضهما هم الحياة ولا انشغلا عن بعضهما متقابلين، كما يتقابل أهل الجنة على سرر، ولم يفرقهما عن بعضهما إلا الموت الذي شبهه الشاعر بفقد العين للبصر، فهي نور عينه التي يبصر بها زال وانطفأ حين فقدها وزوالها عن حياته، ثم إن الشاعر زاد عن استخدامه لهذه الأساليب بان استخدم أسلوب التجسيد حين أضفى على البين بعض الصفات الحسية، حتى انه رمى بين الشاعر وزوجته بالفراق ومع كثرة استخدام الشاعر لمثل هذه الأساليب المتتالية التي يمكن أن تربك الأبيات ونسقها، إلا أن المعنى قد تمكن منه الشاعر وأظهره بجلاء ودون عناء وكأنه لم يستخدم من الأساليب ما يمكن أن يفقدها بعض جمالياتها الشعرية.

ويمكن ملاحظة مبدأ الفداء واضحاً في قول الشاعر متمنياً أن يفتديها بعمره كما كانت تشاركه في قلبه، وهي كناية لطيفة عن مدى حبه لزوجته، فحاول أن يفديها بعمره ولكن هل ينفع الفداء، إذ قال:

يا ليتني عندما حم الحمام كما قاسمتها كبدي قاسمتها عمري

ومبدأ الفداء مبدأ يوحي بصدق العاطفة وحقيقة مشاعر الحب والحنان لدى الشاعر تجاه زوجته الفقيدة، ويمكن أن يستدل من تمني الشاعر الفداء صورة تعكس إحساسه بالغربة بعد الفقد والقلق الذي يستطيع معه الاستمرار في مسيرة الحياة، فأهون عليه أن يقصر عمره ويتمنى الموت مع زوجته أو دونها على أن تتركه وحيداً في هذه الحياة القلقة والمصير المجهول، فمعلوم أن من أغنى الأشياء لدى الإنسان هو العمر والحياة، فما بالك بشخص يتمنى زوالها على أن يبقى من يحب دون فراقه، مما يدلل

على مكانة الزوجة وحضورها القوي في نفسية الشاعر حتى صارت تعادل عندم الحياة، وهي معادلة غالية إذا ما قيست بالحياة السعيدة الزاهية في المجتمع الأندلسي.

كثيراً ما استخدم الشعراء مزج الطبيعة والمرأة في قصاندهم الغزلية، فالطبيعة – ولا سيما في الأندلس– من الأمور المهمة التي ساعدت على ازدهار غرض الغزل فقد اوحت ((إليهم بكل معنى جميل فأخصبت القرائح وأورقت ثمار الإبداعات الشعرية اليانعة))[1].

ويمكن أن نجد مثل هذا المزج في قصائد الرثاء أيضا، ولا أحسن من مقدمة ابن حمديس في رثائه لجاريته جوهرة_وكانت ام ولد_ التي أخذت من نفسه وقلبه كل مأخذ، ونالت منه كل الحب والاحترام والوفاء بعد الموت اذ كان لمكانة الجارية ولمستواها الخلقي الأثر الكبير في موقف الشاعر منها، وهناك فرق بين قول الشاعر في خطاب جارية مبتذله تناولها الأيدي، وبين قوله في جارية محترمة لذاتها صائنة نفسها حافظة لشرفها[2]. إذ قال فيها ابن حمديس[3]:

أيا رشاقة غصن ألبان ما هصرك ... ويا تآلف نظم الشمل من نثرك

ويا شؤوني وشأني كله حزن ... فضي يواقيت دمعي واحبسي دررك

ومن ذلك أيضا قول الشاعر أبي البقاء الرندي في زوجته:

فان تكن زهرة من روسها قطفت ... فقلما تفتح الأيام بالزهر

وان تكن درة من سلكها خطفت ... فالدهر ادرى بما يسبي من الدرر

والملاحظ أن الشعراء عندما يلجؤون إلى مزج الطبيعة بالمرأة في مرثياتهم فإنهم يرسمونها بصورة حزينة تدل على الحالة التي يعيشونها مع ما توحي به الطبيعة من جمال ورقة ونضارة إلا أنهم ينقلون تلك الصورة الجميلة بما يعيشونه من سواد في النظرة وشعور بالحزن وألم الفراق فينقل لنا صورة الزهرة التي قطفت، والدرة التي خطفت فيمزج بين بياض المنظر وسواده وبين جماله ومأساويته وهو رسم لطيف يحاول الشاعر من خلاله إيصال المعنى إلى متلقيه حتى يعيشه بما يحسه

---

[1] التجديد في الأدب الأندلسي: ٢٣.

[2] ينظر المرأة في الأدب في العصر العباسي: ١٥٨.

[3] ديوانه: ٢١٢-٢١٣.

عذاري

هو نفسه وهو أسلوب بارع أشار الشاعر من خلاله إلى مكانة زوجته وقدرها لديه ومدى الفراغ الـذي خلفه فقدها في نفسه وحياته، فما حال البستان دون الزهور وما جمال العقد دون أنفس درره.

ويقر الشاعر في نهاية المطاف بحقيقة القدر ومشيئته في الناس مواسيا بذلك نفسـه ومـهوناً عليها عظم المصاب إذ يقول:

يا قلب صبرا على مـا قـد فجعـت بـه ... فلسـت فـي دفـع مقـدور بمقتـدر

لا تبـك فقـد حبيـب أنـت تابعـه ... إذا مضـى البعـض فالبـاقي علـى الأثـر

وتشخيص الشاعر للقلب- وذلك بخلع الصفات الإنسانية عليه[1]- يوحي بالوحدة التي يعيشها من جهة، كما يمكن أن يدل على مدى الحزن الذي يعيشه بفقدها، فالقلب أول الأعضاء وأكثرها تأثرا بالحزن والسعادة، فما تشخيص الشاعر للقلب والحديث معه إلا مزج منه الحالين، حالة الوحدة والقلق وحالة الحزن والأسى وكأنما القلب جازع لفقدها فكيف هي حال الشاعر! إذا" ؟.

وكما تمنى أبو البقاء الرندي فداء زوجته بعمره واللحاق بها كذلك لم يطلب الشاعر أبو حيـان الأندلسي، الحياة بعد فقد زوجته (زمرد) فلا يرجو بقاء بعدها ولا أمل له في ذلك إذ يقول[2]:

أَلرجـو حيـاة بعـد فقـد زمـرد ... وكـانت بـها روحـي تلـذ وتغتـدي

زمـرد قـد خلفـت للصـب لوعـة ... وحزنـا بقلبـي أخـذا كـل مـأخذ

رميـت بسـهم وسـط قلـب مجـرح ... كـأن بـه وقـع الحسـام المشـحذ

وما تكرار الشاعر للفظة (زمرد) إلا تلذذاً منه بذكرها وذكر اسمها فيعيش حالة من الشـعور بالاطمئنان فهو يوحي لنفسه بأنه يخاطبها حتى بعد الفقد يخاطبها وان لم تسمعه، مواساة منه لنفسـه، ويمكن أن يدل ذلك أيضا على حالة القلق واللاستقرار التي يعيشها الشاعر والتخبط الذهني الذي يمـر به بعد الفقد انه فقد قد خلف فراغاً لا يستطيع احد أن يملأه في نفس الشاعر وحياته حتى تمنـى زوال

---

[1] ينظر الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة: ٤٤.

[2] ديوانه: ١٦٧ وما بعدها

هذه الحياة... ويؤكد الشاعر على عظم الفقد وألم الفراق حينما يصف حاله المضطربة البعيدة عن الراحة والسكينة فجسمه لا يعرف الراحة وعينه لا تعرف الرقاد إذ يقول:

وجسمي إذا رمت اضطجاعاً لراحة يقلب على جمر الغضا ثم يحتذي

.....

فقلبي في حزن وعيني في بكا فيا لك شجواً بين ذا قد ثوى وذي

ثم يأخذ الشاعر بعد ذلك بتعداد مآثر زوجته ومحاسنها زيادة منه للتأكيد على عظم منزلتها ورفعة قدرها لديه وليوحي بالفراغ الكبير الذي خلقه فقدها في نفسه، إذ قال:

وزينة حلم عقلها ثابت فلا تأثر من إبهام كل مشعوذ

وحازت لحسن الخلق خلقاً مدمثاً ولين كلام طاهر ليس بالبذي

فما دنست فاها بغيبة غائب ولا منعت رفدا لمن جاء يحتذي

روت من أحاديث الرسول مسانداً وكان لها روح بتسماعها غذي

.....

وحجت وزارت مرتين وقدست وما بك من بر تعجل وتنفذ

ومنها قوله أيضا:

قضى الله أن عاشت ومانت سعيدة وليس امرؤ مما قضاه بمنقذ

مضت ولها ذكر جميل مخلد ثناء كعرف المسك والعنبر الشذي

إلى العالم العلوي راحوا بروحها لروح وريحان وجنة مغتذ

ولم تكترث يوماً بلبس وزينة وحلي فتبدو في النعيم الملذذ

ولكن بجود واحتمال يزينها بنفح لذي فقر وصفح عن البذي

مطهرة لفظاً وقلباً وبرة مبرأة عن كل ما قادح رذي

ويمكن الإشارة هنا إلى أن الشاعر قد كرر ذكر محاسنها ومآثرها على طول القصيدة بشكل متداخل مع موضوعها الأساس الذي هو الرثاء، وقد يوحي ذلك بحالة الاضطراب التي يعيشها الشاعر جراء هذا الفقد، فهو يذكر محاسنها ثم يعود إلى ذكر حالة الضياع التي يعيشها جراء موت زوجته ثم يعود مرة أخرى لذكر محاسنها ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان منزلتها لديه ثم يعود مرة ثالثة إلى ذكر محاسنها حتى يختم بذلك القصيدة، مما يدل على محاولة الشاعر من خلال هذا الإلحاح في تكرار ذكر محاسنها على عظم حالة الحزن التي يعيشها الشاعر والفراغ والقلق النفسي للوعة هذا الفقد، وهي حالة برع الشاعر في إيصالها إلى متلقيه من خلال استخدامه هذا الأسلوب القلق في القصيدة حتى جعلها تبدو وكأنها قصيدة مرتبكة، وما هي بذلك ولكن أسلوب الشاعر ابرع من هذا. فحاول الشاعر أن يبني صورته الكلية من خلال ما يعرف بالبناء الدائري للصورة وهو ((ابتداء القصيدة بموقف معين أو لحظة نفسية ثم العودة مرة أخرى إلى الموقف نفسه ليختم الشاعر به قصيدته. وقد يلجا الشاعر لتحقيق ذلك إلى تكرار الأبيات التي ابتدأ بها أو تكرار نفس مضمون الفكرة التي ابتدأ بها))[1].

إذاً لقد كانت الزوجة تمثل للشاعر الأندلسي حياته ووجوده وهذا ما يمكن أن يلاحظ من خلال قصائدهم المتشابهة في طرق مثل هذه المعاني فهي (السكن والأمن والطمأنينة)[2].

إنها تلك الطمأنينة المفقودة التي يبحث عنها الشاعر الأندلسي حتى بعد الموت وهذا ما يؤكده الشاعر ابن هذيل التجيبي[*]، بقوله في وصيته[3]:

اذا مت فادفني حذاء حليلتي يخالط عظمي في التراب عظامها

---

[1] الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة: ٩٣

[2] الأدب العربي في الأندلس وتطوره: ٢١٦.

[*] هو ابو زكريا ابن هذيل التجيبي، الشيخ الصالح الاديب من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، شاعر وطبيب مشهور توفي عام (٧٥٣هـ). ينظر: نثير فرائد الجمان: ٣٢٠ ، نفح الطيب: ٢ /٣٩٢.

[3] نفح الطيب : ٤٩٧/٥.

ولا تدفنني في البقيع فأنني أريد إلى يوم الحساب التزاما

ورتب ضريحي كيفما يشاء الهوى تكون أمامي أو أكون أمامها

لعل الله العرش يجبر صدعتي فيعطي مقامي عنده ومقامها

فتمنى أن يدفن في جوارها على أن يدفن بجوار الأولياء والصالحين في ارض البقيع، حتى يوم الحساب لعل الله يجمعهم في الجنة ونعيمها في الأخرة، وبعد ذلك فهو شعور متدفق وإحساس صادق وصور معبرة، لم يسبقه غيره من اقرانه في التعبير عنها، في المعنى نعم، لكن الأسلوب وطريقة التعبير فلا اعتقد أن احد من اقرانه قد جاراه في رسمه لهذه الصورة الجميلة، والتي تفيض بصدق العاطفة وحرارة الشعور .

وبعد ... فكل تلك الصور يمكن أن تدل على مكانة الزوجة في حياة الشاعر الأندلسي الذي هو انعكاس للمجتمع الأندلسي، فلا يتمنى فقدها ولا الفراق وان باعدت بينهما الأيام ومر الحوادث. فما هذه المنزلة الرفيعة والقدر العظيم الذي حازته تلك الزوجة في نفسية الشاعر.

وكما سبقت الإشارة فأن ظاهرة كثرة رثاء الزوجات يمكن أن تعد من الظواهر الحضارية حيث انه من المعلوم أن زيارة قبر الزوجة ورثاءها يعد عيبا في المجتمعات العربية القديمة، ومع تطور هذه المجتمعات ولا سيما المجتمع الأندلسي الذي يمكن أن يعد من أرقى المجتمعات العربية الإسلامية في تطوره الحضاري، وما تتمتع به من حرية وتحرر نتيجة للاختلاط الحاصل بين المجتمع العربي الإسلامي والمجتمعات الأخرى ، سمحت للشعراء بقول المراثي في زوجاتهم واعتبار ذلك تعبيرا عن فيض حزنه وألمه

لفقد عشيره ورفيقة دربه وحياته فلم يكن من الأمور المعيبة في مجتمعهم مما أدى إلى انتشار هذه الظاهرة وكثرتها، وعليه يمكن أن تعد من ضمن الظواهر الحضارية في المجتمع العربي في الأندلس

وقد أصاب شعور الأندلسي المرهف (وجعله يحس في الفقد لا معنى الفقد المباشر نفسه بل حاجته إلى سكن يأوي إليه وتمثل المرأة في حياته هذا السكن على نحو عميق).[1]

الخاتمة ونتائج البحث:

وفي نهاية المطاف لابد من ذكر بعض النتائج التي توصل إليها البحث ومنها:-

١-في بناء القصيدة:

مما تقدم من ذكر بعض القصائد التي رثى فيها الشعراء زوجاتهم يمكن الخروج ببعض الإشارات المتكررة في بنائهم لتلك القصائد والأساليب المتبعة في أنساقها البنائية في ذلك:

أ. فإذا جئنا إلى ملاحظة مقدمة القصيدة المرثية يلاحظ أن اغلب الشعراء لجؤوا إلى الابتداء بمقدمة حزينة يتفجعون بها على زوجاتهم وما حل بهم من عظم المصاب ووقوع الفاجعة وألم الفقد، وإشراك الأيام والطبيعة من حولهم في ذلك الحزن[2]،

في حين ابتداء البعض القليل بمزج مقدماتهم الحزينة بذكر الطبيعة ووصفها ومن ذلك مقدمة ابن حمديس في رثاء جاريته جوهرة [3]

٢.وبعد تلك المقدمة ينتقل الشاعر إلى غرضه الأساس وهو رثاء زوجته، فيجد في وصفها وذكر محاسنها والتفجع على فقدها والبكاء المستمر على ذلك الفقد والمصاب الذي نزل به وحل بداره، وهو بذلك يحاول الإشارة إلى مكانه زوجته في نفسه ورفعة قدرها ومنزلتها لديه كما حاول بعضهم إشراك الأيام والدهر في حزنه وبكائه عليها[4]

ج- ثم يختم الشاعر قصيدته بحكمة مستخلصة من ذلك كله ألا وهي أن البقاء لله تعالى وحده لا شريك له في ذلك، وان كل من على هذه الدنيا لا محالة راحل [5] .

د- وفي البناء الداخلي للقصيدة استفاد الشاعر من مختلف الأساليب البلاغية في بناء صوره، كأسلوب المبالغة ، والتجسيد والتشخيص، والتشبيه بأنواعه، فكانت الصورة الكلية التي ساعدت على بناء عضوية القصيدة ووحدتها الموضوعية.

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسي: ١٢٠.

[2] ينظر:٤و٧ و ١١و٩ من البحث.

[3] ينظر ١٧ من البحث .

[4] ينظر:٤-٥-١٩- من البحث.

[5] ينظر: ١٠-١٤-١٨ من البحث.

فما وحدة القصيدة العضوية إلا وحدة الصور وتماسكها لتقدم لنا تلك الصورة الكلية المؤلفة من مجموعة متآزرة من الصور[1].

اذاً فهو يمكن أن يعد بناءً تقليدياً استخدمه الشاعر الأندلسي في رثاء زوجته كما استخدمه غيره من الشعراء في المشرق وكما استخدمه هو في رثاء الآخرين، لم يخرج عما عرف في بناء القصيدة العربية إلا أن الاختلاف يمكن أن يلاحظ فيما بين القصائد من خلال اختلافها في صدق العاطفة وقوتها وحرارة التعبير، ورقة الأسلوب وجزالته بين قصيدة وأخرى تبعاً لا حساس الشاعر وقوة تعبيره وهذا ما لا يمكن اصطناعه أو التمكن منه عمداً.

كما تبين لنا من البحث :

٢- إن فقد الزوجة قد شكل لدى الشاعر الأندلسي قلقاً عارماً هز كل أركان حياته نتيجة لفقده السكن والطمأنينة بفقدها مما انعكس سلباً على حياته.

٣- إن المرأة الأندلسية ولا سيما الزوجة قد حظيت بمكانة مرموقة ومنزلة عالية وقدر رفيع في المجتمع الأندلسي الذي صار ينظر إليها كعنصر فعال فيه، وعنصر له أهميته الكبرى بحيث إن فقده يعد مشكلة تربك حياة الفرد الأندلسي والمتمثلة في الشاعر الأندلسي.

٤- أن المجتمع الأندلسي يمكن أن يعد من ارقي المجتمعات العربية الإسلامية خلال مسيرة الحياة العربية ولا سيما في مجال الثقافة والأدب، وذلك من خلال النظرة الموضوعية للمرأة وإعطائها حريتها في طلب العلم وممارسة الحياة الطبيعية، وكذلك قبول المجتمع الأندلسي لتلك النظرة وتقبله لمراثي الشعراء في النساء إلى جانب مديحهم وفخرهم بهن.

٥- إن البناء المتبع في الشعر الأندلسي ولا سيما في موضوع الرثاء لا يختلف عما هو عليه في المشرق وان كان الأدب الأندلسي عامة لا يختلف عن الأدب العربي في المشرق- إلا في تميزه في موضوع الموشحات- إلا أن الأساليب والمعاني قد اختلفت نتيجة لما يتمتع به الأندلسي من إحساس مرهف وشعور رقيق فضلاً عن حالة اللااستقرار التي عايشها في الأندلس، كل ذلك جعل منها قصيدة أكثر رقة في معانيها وأساليبها.

٦- إن الموت قد شكل هاجساً دائماً لدى الفرد الأندلسي ولا سيما الشاعر الأندلسي، _حاله في ذلك حال غيره من الشعراء في الأدب العربي عامة _ فأصبح وأمس يخاف من هذا الكابوس المطبق

---

[1] ينظر: الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة:٧٥.

على حياته المتربص به الخاطف للذته ومفرق أحبته، وما ذلك الخوف من الموت إلا نتيجة طبيعية للقلق الذي يعيشه في بلاد لا تعرف الاستقرار الدائم، مهددة بين الحين والأخر بالحرب والغزو. مما جعل اغلب نتاجهم الأدبي عبارة عن مراثي ذاتية خالصة.

٧- إن ظاهرة رثاء الزوجات كانت واسعة في الشعر الأندلسي خلال هذه الحقبة من الزمن في الأندلس، ويكمن وراءها عدة عوامل بيئية واجتماعية وسياسية، فضلاً عن العوامل الشخصية الذاتية، التي استطاع الشاعر الأندلسي أن يعبر عن كل تلك الأمور وإسقاطاته الخاصة ونظرته إلى الأوضاع العامة من خلال هذه المراثي الذاتية.

المصـــــــــــــــادر

المصـــــــــــــــدر	ت
القران الكريم	١
أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، د. محمـــد رضـــوان الدايـــه، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦.	٢
الإحاطة في أخبار غرناطة، لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيـب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة (ثلاثـــة أجـــزاء) ج١، ط٢ ١٩٧٣.	٣
الأدب العربي في الأندلس تطوره وموضوعاته وأشـــهر أعلامـــه د. علي محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بـــيروت- لبنـــان ط١ ١٩٨٩.	٤
البلح المر، عبد الجبار داود البصري، دار الشؤون الثقافية العامة ط١ ٢٠٠٠ بغداد.	٥
تأريخ الأدب الأندلسي- عصر الطوائف والمرابطين د.إحسان عبـــاس دار الثقافة بيروت- لبنان ط٣ ١٩٧٤.	٦
التجديد في الأدب الأندلسي د. باقر سماكة، مطبعة الإيمان بغـــداد ط١ ١٩٧١.	٧
الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨-١٩٧٥ دراســـة نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٩.	٨
الحلة السيراء، لأبي عبد الله ابن الابار، تحقيق د. حســـين مؤنـــس، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣.	٩

ت	المصـــــــــــــــدر
١٠	جريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني- القسم الرابع الجزء الثاني، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم دار نهضـــة مصر ١٩٦٩.
١١	دراسات أدبية في الشعر الأندلسي د. سعد إسماعيل شلبي دار نهضـــة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٣.
١٢	ديوان ابن حمديس- صححه وقدم له د. إحسان عبـــاس دار صـــادر، ودار بيروت للطباعة والنشر- بيروت ١٩٦٠.
١٣	ديوان ابن الزقاق البلنسي- تحقيق عفيفة محمود ديراني- دار الثقافـــة بيروت مطبعة سميا بيروت ١٩٦٤.
١٤	ديوان ابن فركون، تحقيق وتعليق محمد بن شـــريفة مطبعـــة النجـــاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٨٧.
١٥	ديوان أبي حيان الأندلسي- تحقيـــق د. احمـــد مطلـــوب د. خديجـــة الحديثي، مطبعة العاني بغداد ١٩٦٩.
١٦	ديوان الأعمى التطيلي- تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة بـــيروت ١٩٦٣.
١٧	ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب المجلد الثاني تحقيـــق د. نعمـــان محمد أمين طه دار المعارف بمصر ١٩٧١.
١٨	ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تحقيق عبـــد الله كنـــون، مكتبـــة الانجلو المصرية القاهرة ط٢ ١٩٦٥.

ت	المصـــــــــــــــــــدر
١٩	الشعر النسوي في الأندلس، محمد المنتصر الريسوني- قدم له د. عبد الله كنون منشورات دار مكتبة الحياة بيروت- لبنان ١٩٧٨.
٢٠	العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني حققه محمد محي الدين عبد الحميد- دار الجيل بيروت لبنان ط٤. ١٩٧٢.
٢١	في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي دار المعارف بمصر ط٢.
٢٢	الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من أهل المائة الثامنة لسان الدين ابن الخطيب تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٦٣.
٢٣	المرأة في الأدب في العصر العباسي، واجدة مجيد عبد الله الاطرقجي دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٩.
٢٤	المرأة في الشعر الجاهلي د. علي الهاشمي- مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٠.
٢٥	المرثاة الغزلية في الشعر العربي د. عناد غزوان مطبعة الزهراء بغداد ١٩٧٤.
٢٦	المغرب في حلى المغرب، أكمل تأليفه ابن سعيد الأندلسي، ج٢ تحقيق د. شوقي ضيف ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٥٥.
٢٧	نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، أبو الوليد ابن الأحمد، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت ١٩٦٧.
٢٨	نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، لسان الدين ابن الخطيب نشر وتعليق د. احمد مختار العبادي دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد
٢٩	نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري

	التلمساني حققه د. إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨.
٣٠	النقد الأدبي الحديث تأليف د. محمد غنيمي هلال دار الثقافة بـــيروت لبنان دار العودة بيروت لبنان ١٩٧٣.
٣١	نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الديـــن النويـــري وزارة الثقافـــة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع توستا شوماس وشركاه (ج٥)(د.ت).

Mourning of the wife and her reputation in the Andalusia Poetry in the time of Morabiteen and Moahideen and Bani – ahmar.

In the name of God, most merciful most compassionate. Thank God, the lord of all peoples, may his blessings be on his prophet Mohammed and his family and companions. Many poets wrote about their loved ones, their mistresses and their devoted wives whether they were alive or dead. Such writings were a different kind of flirting for being passionate and wound touching poems that tell the importance of the lost wives. Mourning the wife by poems was a vast phenomenon in the Andalusia society, sometimes not clearly apparent, but still looking as an important sign in that society. Many researchers tried to dig for specific motives behind such poems, like the study by Dr. Ali AL-Hashimy entitled the women in the pre-Islamic poetry, the study by r. Wajida Majeed entitled the women in the Abbasid literature, and the book by Dr.Inad Gazwan entitled the mourning by flirting.

Our study used a specific plan to look for the availability of the poems and their constructional divisions using the meaning as the basic link between the different poems irrespective of the historical frame. Such meanings me like sadnees, grief and crying for the lost ones or the loss of beauty and mentioning the children. We addeassed the importance of the unity of the mourning poems because of the importance of the classical constructional unity in the Arabic poem in general